

تجليات الخطاب الروحي في الأدب الصوفي

Manifestations of Spiritual Discourse in Sufi Literature

عجمي حمزة¹، حفصة جعيط²

¹ أبو القاسم سعد الله الجزائر 02 (الجزائر)، hamza.adjemi@univ-alger2.dz

² أبو القاسم سعد الله الجزائر 02 (الجزائر)، hafsa122006@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2025/02/18 تاريخ القبول: 2025/06/10 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص:

يتناول هذا المقال تجليات الخطاب الروحي في الأدب الصوفي، ويؤصل لتلك الشمولية الاستغراقية في النظرة الإطلاكية لهذا الخطاب وفي تعالقه مع واقع النص الروحي والصوفي بين الوجود المطلق والوجود الإنساني، مبرزة الجانب الجمالي في النصوص الأدبية الروحية.

كما يتناول هذا المقال الخطاب الروحي ويعالج مضامينه في تنمية القيم الروحية مبرزا أهمية هذا الخطاب في ظل التحديات المعاصرة ومستعرضا أبعاده المتعددة في تنمية القيم الروحية للإنسان، الذي تحيط به الملذات من كل الاتجاهات وتتقاذفه الأهواء وغطرسة الأنا في كل الأزمنة واللحظات، مستندا في ذلك إلى بعض خطابات بعض الأدباء كما يهدف هذا المقال إلى توضيح قيمة هذا الخطاب في تعزيز قيم التفاعل الإيجابي مع روح العصر.

كلمات مفتاحية: الخطاب الروحي – الأدب الصوفي – الشعر – التواصل الروحي.

Abstract:

This article deals with the manifestations of spiritual discourse in Sufi literature, and establishes the basis for the inclusiveness of this discourse and its relationship with the reality of the spiritual and mystical text between absolute existence and human existence, highlighting the aesthetic aspect in spiritual literary texts, highlighting the importance of this discourse in light of contemporary challenges and reviewing its multiple dimensions in developing the spiritual values of the human being, who is surrounded by pleasures in all directions.

This article also deals with spiritual discourse and addresses its contents in the development of spiritual values, highlighting the importance of this discourse in light of contemporary challenges and reviewing its multiple dimensions in the development of spiritual values for humans, who are surrounded by pleasures from all directions and tossed around by whims and ego arrogance at all times and moments, based on some

of the discourses of some writers. This article also aims to clarify the value of this discourse in promoting the values of positive interaction with the spirit of the age.

Keywords: Spiritual Discourse - Sufi Literature - Poetry - Spiritual Communication.

***المؤلف المرسل: عجي حمزة.**

1. مقدمة

يعد الخطاب الروحي المتصوف نوعا من الخطابات الدينية التي تهدف إلى الوعظ والإرشاد والتأمل في الحقائق الكونية الكبرى، ويستمد الخطاب الروحي المتصوف كغيره من الخطابات الدينية فحواه من مصادر التشريع الإسلامي وعلى وجه الخصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، قال الجنيد "الطرق لكلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام" وأيضا قوله: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة" (ابن القيم، دت، صفحة 100) وسيد الصحابة والزهاد والصالحين في كتب المتأخرين الاقتداء بالأولين إن ما يميز الخطاب الصوفي عن غيره من الخطابات هو تعلقه بالروحانية وعمق الفكر وانفاذ البصيرة، فالمتصوفة قد اشتغلوا بتحقيق أعلى المقامات الدينية بعد مقامي الإسلام والإيمان، وهو مقام الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك، والذي بدوره يشتمل على مقامات أعلاها مقام وحدة الشهود مصداقا لقول عمر بن الخطاب "بينما عن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ... قال: فأخبرني عن الإحسان..." (مسلم، دت، صفحة 36) كما أن جل موضوعاته تعلقت معرفة الله، وارتكزت في ذلك على الجانب الروحي العقدي الذي تهدف ثمرته الى تزكية النفس البشرية، كما جاء في قوله تعالى "قد افلح من زكاها" [سورة الشمس: الآية 9] ، بينما بقية الخطابات مثل خطاب الفقهاء اهتم بتعاليم وأحكام الشريعة، وخطاب المحدثين ارتكز على الحديث الشريف، وخطاب الكلاميين الذي انحصر موضوعه في العقيدة وغيره من الخطابات الأخرى.

إن المتأمل للخطاب الروحي المتصوف يجده يرتكز على ثلاث نقط أساسية، ومنه تفرع عنها تفرعات عديدة، أولها وأهمها معرفة الله، وثانيها معرفة الانسان نفسه وما يترتب عليه من واجبات لإرضاء خالقه، أما ثالثها فهي الكون أو ما أوجد الخالق من مخلوقات، الترابط بين هذه النقاط وثيق جدا.

حيث أن الإنسان جزء من هذا الكون، ويتأمل هذا الكون يهتدي بالعلم والسلوك الحسن إلى تعظيم خالقه وتقديره حق قدره، ولا يفتن خلق فيشرك بربه قال الله تعالى "وما قدرُوا الله حق قدره

والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون"[سورة الزمر، الآية 67].

- والأجدر بنا هنا أن نتطرق قبل هذه المحاور الثلاثة (الله، الكون، الإنسان) إلى الإشارة إلى بعض النقاط التي تعتبر بمثابة إشارات وتنبيهات:

1. استحالة الإحاطة بها من حيث ذاتها، فإن كان لها ذات فهي لا تستوعبها عبارة، كما قال ابن العربي "بل لا تركبه العبارة أصلا ولا الإشارة ولكن يدرك بالكشف" (بن العربي، 1985، صفحة 37).

2. أن الكلام أو العبارات التي تستخدم كآلية للتعبير عن المعاني هي في حد ذاتها حجب لتلك العبارات بمعنى أنه مهما حاولت العبارة أن تحتوي مفهوم أو اقتباس معنى حصرت واختزلت ذلك المعنى، فإن قربت العبارة المفهوم وحالفها التوفيق، تكون قد أحاطت ببعض الاحتمالات للخطاب الروحي، لأن هذا الأخير يشتغل بمواضيع لا حصر لها في ذاتها، وهنا نقصد المحاور الثلاثة المشار إليها سابقا.

- إن التصوف بعمق دلالاته هو عبارة عن سلوك وممارسة وتجربة روحية بالأساس قبل أن تتلبس بالنظريات والمباحث الفلسفية، فموضوعه علاقة الإنسان بخالقه، وكل ما توجه به هذه العلاقة من الإذعان والخضوع لقدرته، وطمع في نعمته التي لا تنفك عن الإنسان وسائر المخلوقات، ألا وهي نعم الإيجاد والإمداد، أوجد الخلق وأمدّه من فضله حتى لا يزول ويضمحل، وسبحان من لا تنفذ خزائنه مصداقا لقوله تعالى "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم"[سورة الحجر، الآية 21]. لا يخلو فن التصوف من مبدأ التعريف بالله وذكره ووصفه على أنه الواحد الأحد والممد لخلقه بفضله ونعمه، وكلما ارتقى الإنسان في معرفته لله زاد يقينه واعترافه بحق ربوبيته وألوهيته، فقد أورد ابن أبي الدنيا في مؤلفه التوبة قوله: "إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد" (ابن أبي الدنيا، دت، صفحة 3)

أما ثاني المحاور فهو متعلق بالإنسان نفسه فهو محور الوجود، وكل ما خلق من قبل الله فالأجله، وهو المخلوق الذي وكلت حفظ الأمانة واستوجب عليه الجهاد للانعتاق من براثن الدنيا من شهوات والضلال للنجاة من كدر الحياة والنجاة بنور العلم والإيمان إلى جنة القربات، فجاءت كتب هذا الفن بما يعين الإنسان على الرقي إلى مقام الإحسان والنجاة من الخذلان مصداقا لقوله تعالى: "إن الذين سبقت لهم فينا الحسنی أولئك عنها مبعدون"[سورة الأنبياء، الآية 101].

في حين النقطة الثالثة هي عبارة عن همزة وصل بين المحورين السابقين، فالتدبر والتفكر في ملكوت الله يدل الإنسان على صنعة خالقه، فقد جاء في الزهد للإمام أحمد بن حنبل "تفكر ساعة خير من قيام ليلة" (بن حنبل، دت، صفحة 114).

وفي النقطتين الأوليتين نجد أن هناك تقاطعا بين الفكر الصوفي والفكر الفلسفي، وبالتالي فقد أصبح هذا الأخير مصدرا من مصادر الفكر الصوفي لاشتراكه معه في خاصية العمق والبحث عن كنه الحقائق والأسرار الكونية، فنجد أن الفلسفة اليونانية كان لها أثرها البارز في تبلور هذا الفكر، ولهذا ما لمسناه عن جابر بن حيان من خلال مؤلفاته التي أوردها ابن النديم (النديم، 1997، صفحة 435)، وأخوان الصفا الذين عرفوا رسائلهم في الفهرس بأنها اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم، وطرائف الآداب، وحقائق المعاني، عن كلام خالص الصوفية (بن عبد الله، 1305، صفحة 2)، وأبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء، وابن العربي في فتوحاته المكية.

ويعود هذا إلى أن مواضيع الفكر الصوفي تهدف إلى كشف الحقائق الكونية وتهدف أيضا إلى ترقية سلوك الفرد في العالم الروحاني، وبذلك مواضيع بحثه تنقل المتصوف إلى البحث في كشف الحقائق والأسرار الطبيعية التي تكشف من خلال التأمل في الكون بغرض الرقي إلى معرفة موجد الكون وخالقه. إن عظمة الكون ودقة صنعته وتناسل نظامه حير أولي الأبواب من الفلاسفة القدماء قبل البعثة المحمدية، فتباينت مصطلحات آراء الحكماء والفلاسفة حول موضوع بدء الخلق أو ما يسمى أول الفطرة الذي يوجب الإذعان للواحد الأحد، وهذه الخلافات الاصطلاحية أوردها إخوان الصفا.

أما في رسالتهم الجامعة قائلين: "فمن الحكمة من قال الهيولي والصورة، ومنهم من قال النور والظلمة، ومنهم من قال الجوهر والعرض، ومنهم من قال الروحاني والجسماني، ومنهم من قال اللوح والقلم، ومنهم من قال الوجود والعدم، القبض والبسط، المحبة والشوق" (قاسمي، 2015، الصفحات 429-450).

ثم أوضحوا بعد ذلك اتفاق معاني اصطلاحاتهم وأغراضهم فيها مفصلين بان الذين قالوا الهيولي والصورة "عنوا أن العقل صورة للنفس وتماهيه لها، وانها هيولي له لقبولها إنارته، وإشراقها بنوره، فهو مودعها صورة التمام، ومبلغها إلى درجة الكمال" (قاسمي، 2015، الصفحات 450-452).

وأما من قال المحبة والشوق "فإنما أراد بالمحبة إقبال العقل على النفس بالمحبة إذ هو كالأب، وأما الشوق فشوقها إلى فؤاده وتلقيتها نعمه" (قاسمي، 2015، الصفحات 450-452)، وهكذا دواليك مع بقية المصطلحات.

2. مصادر الفكر الصوفي

إن أهم المصادر التي يركز عليها الفكر الصوفي هما القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة.

1.2 القرآن الكريم

أدخل يعتبر القرآن الكريم أهم مصدر من مصادر الفكر الصوفي، فأيات الجانب العقدي التي تدعو الانسان إلى الإقرار بوجود الله وتوحيده وتنزيهه عن خلقه أخذت الحيز الأعظم لتثبيت دائم الايمان به، فنجد التنزيل يزخر بأيات عديدة تدعو إلى التفكير في خلق السماوات والأرض وفي خلق الإنسان نفسه كقوله تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار" [سورة آل عمران، الآية 190]، وقوله: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر" [سورة الغاشية، الآيات 22-17]

وقد لفت القرآن الكريم الانسان الى مصدر خلقه في قوله تعالى: "فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب" [سورة الطارق، الآيات 5-7] ثم فصل الله اطيوار نشأته وحدد له مآله إلى الموت ثم البعث والحساب، قال الله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون * ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين" [سورة المؤمنون، الآيات 12-17].

كل تلك الحقائق الكونية التي ساقها الله عز وجل للإنسان في هذه الآيات استدعت من الإنسان أن يتعرف على موجه الكون وخالقه، وكان من فضل المولى ان ساق له آيات أخرى متعلقة بذاته وصفاته وقدرته وجبروته كقوله: هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم، هو الله

الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم" [سورة الحشر، الآيات 22-24].

كما أوضح المولى تعالى للإنسان دوره المنوط به في هذه الحياة قال تعالى: "وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون" [سورة الذاريات، الآيتان 56-57]، هذا ما أنبأ به الكتاب الذي لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من رب العزة إلى المبعوث رحمة للعالمين عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام حول الإنسان والكون الذي هو جزء منه، أو الباري خالق وموجد هذا الكون.

2.2. السنة النبوية:

وهي المصدر الثاني الذي يركز عليه الخطاب الديني فهي سنة من اصطفاها المولى عز وجل من قول أو فعل أو تقرير، ان وحوى الخطاب الديني عموما تركيز في بدايته حول ترسيخ عقيدة الإيمان بوجود واجد الوجود وعظمته ووحدانية ربوبيته وألوهيته وتنزيهه من الشرك، فكانت سلوكيات النبي صلى الله عليه وسلم المتلقي للوحي، والذي نفث روح القدس في روعه (القرطبي، 2000، صفحة 522)، هي النموذج الأمثل في الاقتداء، فكان أول من دعا أمتة تزكية النفوس وجهاد هواها كما ذكر ابن البطل في شرحه على صحيح البخاري أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه وقد انصرفوا من الجهاد "أتيتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال مجاهدة النفس"، وقال سفيان الثوري "ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك بيه أجر، انما عدوك نفسك التي بين جنبيك، فقاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك" (ابن بطال، 2003، صفحة 210).

ومنه نخلص إلى ان التقوى والخضوع لله قبل مرحلة التدوين كان سار في سلوكه صلى الله عليه وسلم، وسلوك الصحابة والتابعين كالخليفة عمر رضي الله عنه الذي عرف بالزهد، (بن حنبل، دت، الصفحات 94-95)، وهذا كان بالاجتهاد في العبادة والزهد في الحياة الدنيا ولكنهم لم يعرفوا باسم الصوفية (الذهبي، 2000، صفحة 50)، إنما ظهر هذا المصطلح لأول مرة مقترنا باسم أبي هاشم الصوفي (ت 150هـ) المقترن أيضا باسم جابر بن حيان الصوفي أيضا.

3.2. مؤلفات الكتابة الصوفية:

إن كتابة التصوف بوصفه خطاب روحي ديني بدأت مستقلة عن كتب الفقه والحديث والتفسير من خلال كتب ورسائل تتعلق بتزكية النفس وترويضها على الطاعة، وعرف هذا النوع من الكتب باسم كتب الزهد والرقائق، الآداب والأذكار، وهذا النوع من الكتابات محمود بين أهل السنة والجماعة لاعتماده على القرآن والسنة، ومن بين هذه الكتب يجدر بنا ذكر العناوين الآتية: الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع، كتاب الزهد لوكيع (ت 197)، كتاب آداب النفوس للمحاسبي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حيان البستي (ت 350)، الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري (ت 465 هـ)، الإحياء للغزالي (ت 505 هـ)، صيد الخاطر لابن الجوزي (ت 597 هـ)، بستان العارفين للنووي (ت 676 هـ)، لطائف المعارف لابن رجب (ت 795 هـ)، نزهة المجالس ومنتخب النفائس للصفوري (894 هـ).

وفي المقابل ذلك ظهر لون آخر من الكتابات في فن التصوف وقد امتاز هذا اللون بالجانب النظري، اعتمد فيه مؤلفوه على المنهج الفلسفي الذي يرمي إلى التفكير في العمق والبحث عن كنه الحقائق الغيبية، ولعل أكبر متصدر لهذا الاتجاه معي الدين بن العربي الذي كان ولا يزال محط اهتمام مريديه وناقديه، فنجد على سبيل المثال عبد القادر بن حبيب الله السندي يؤلف كتاب بعنوان "التصوف في ميزان البحث والتحقيق والرد على ابن العربي الصوفي في ضوء الكتاب والسنة" (السندي، 1990) ولا يخفى على القارئ أن عنوان الكتاب يكشف عن موقف مؤلفه تجاه ابن عربي.

لما كان هذا المقام هاجسا للمريدين، وغاية للسالكين فلا نكاد نجد في كتابات المتأخرين في فن التصوف كتابا يخلو من ذكر كرامات الأولياء التي هي أمر خارق للعادة، بكرم به الله أوليائه للتدليل على حسن سيرتهم واستحقاقهم من الله فضل الكرامة، ولقد استبدل المؤلفون على صحة وجودها بآيات من القرآن.

كسرد قصة الذي عنده علم من الكتاب "أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك" [سورة النمل، الآية 40]، وقصة مريم بنت عمران حين قال لها النبي زكريا: "أئن لك هذا قالت هو من عند الله" [سورة آل عمران، الآية 37].

مع ذلك أهل الرشاد من المتصوفة يعتبرون أن أعظم كرامة هي هههه على شرع الله، قال أبو القاسم القشيري: "واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والحفظ من

المعاصي والمخالفات" (النوري، دت، صفحة 68)، والصوفية يمنعون إظهارها والكرامة إلا لغرض صحيح كنصرة شريعة الله أمام الكافرين والمعاندين، أما إظهارها بدون سبب مشروع هو مذموم، لما فيه من حظ النفس والمفاخرة والعجب قال ابن عربي "ولا يخفى أن الكرامة عند اكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إلا إن كانت لنصردين أو جلب مصلحة، لأن الله هو الفاعل عندهم، هذا مشهدهم وليس وجه الخصوصية إلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم... وإذا رجع الأمر إلى القدرة فلا تعجب" (الشعراني، دت، صفحة 494).

كما أن الصوتية لا يعتبرون ظهور الكرامات على يد الوليد الصالح دليل على أفضليته على غيره، قال الإمام الياضي "لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم... وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين أو كمال المعرفة بالله" (الياضي، 2000، صفحة 119).

لقد اهتم المتصوفة بالقول بالحلول والاتحاد معنى أن الله قد حل في جميع أجزاء الكون، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، كما يرى المتصوفة أنه لا شك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقائد الأمة الإسلامية، فهم ينفون هذه التهمة على أنفسهم جملة وتفصيلا، كما أنهم يحذرون من أن يرميهم أحد بهذه العقيدة الكفرية الفاسدة جزافا دون تمحيص أو تبيان، ومن غير أن يفهم مرادهم، ويطلع على عقائدهم الحقة التي ذكروها صريحة واضحة في أمهات كتبهم، مثل الفتوحات المكية لمحي الدين عربي، وإحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم القشيري الشافعي، والمثنوي لجلال الدين الروم وغيرها من المؤلفات.

قال الشعراني: "ولعمري إذا كان عبّاد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله، بل قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفا، فكيف يظن بأولياء الله أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعلق العقول الضعيفة" (الشعراني، دت، صفحة 120) كما قال ابن عربي "أعلم أن الله واحد بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء، أو يحل هو في شيء، أو يتحد في شيء" (بن العربي، 1985، صفحة 40).

وقال الشعراني في باب الأسراء "لا يجوز لعارف أن يقول أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه، إنما يقول: أنا العبد الدليل في المسير والمقبل" (الشعراني، دت، صفحة 120).

وأما ما ورد من كلام المتصوفة في كتبهم مما يفيد ظاهرة الحلول والاتحاد، فيقولون أنه إما مدسوس عليهم بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة، وإما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة والنحلة، ولكن بعض منتقديهم حملوا التشابه من كلامهم على هذا الفهم، ورموهم بالزندقة والكفر، أما غيرهم فقد فهموا كلامهم على معناه الموافق العقيدة أهل السنة والجماعة وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية.

ونقل جلال الدين السيوطي عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال: "وأعلم انه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد، إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد، والتوحيد معرفة الواحد الأحد، فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم فحملوا على غير محمله فخلطوا وهلكوا بذلك" (السيوطي، 2004، صفحة 162).

وقال ابن القيم الجوزية ضمن كتابه "مدارج السالكين" الدرجة الثالثة من درجات الفناء، ثناء خواص الأولياء وأئمة المقربين، وهو الفناء عن إرادة السوي مثنائاً برق الفناء عن إرادة ما سواه، سالكا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه، فانيا بمراد محبوبه منه، عن مراده هو من محبوبه، فضلا عن إرادة غيره" (ابن القيم، دت، صفحة 164).

ثم أن أهل التصوف في خطاباتهم مصطلحات امتازوا بها عن غيرهم نذكر من بينها مصطلح "الأنس" الذي عرفه الجنيد بأنه "هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، والوجد والتواجد" (التهانوني، 1996، صفحة 277)، ومصطلحات التجريد، والجذب إلى غيرها من المصطلحات، فينبغي للسالكين عموما بلوغ مقامات من خلال العمل الروحاني الذي يؤهلهم إلى الكشف والإلهام أو العلم اللدني.

بهذه الحالات يرقى إليها السالك بفضل النهج العلمي المتبع في طرق مختلفة من مدارس المتصوفة كذكر الله كثير سرا وجهرا باللسان والقلب، ومصاحبة الأخيار تارة، وانقطاع عن البشر لفترة محدودة تارة أخرى، وهو ما يعرف بالخلوة كلها أعمال أفرد لها أهل هذا الفن كتب لشرح هذه الكلمات وطريقة بلوغ هذه المقامات.

كما أن كبار أهل هذا الفن أفردوا كتباً عبروا من خلالها عن الأحوال والمقامات الروحية بكلمات هي بمثابة الرمز الذي لا يفهمه إلا من كان له حظ في هذه الطريق أو ذوق سليم ناله بالتخلي ليبلغ مقام التجلي

إن الظاهرة الصوفية ظاهرة إنسانية وجودية على حد تعبير ابن عربي على أساس أنها تركز اهتمامها على الوجود الإنساني، وتروم تحقيق كماله بواسطة تنمية الذات روحا وترقيتها، وذلك بتحويل صفاتها وتوجيه سلوكاتها، وتحقيق تلك الشمولية الاستغراقية في مجالات إدراكاتها عن طريق فعل الحس والعقل إلى دوائر الذوق الصوفي.

إن هذا التلازم بين الروح والعالم الفلسفي من منظور الخطاب الروحي جعل التصور الصوفي الذي يؤمن به المتصوف من أكمل الموجودات والسبب في ذلك "لأنه يجمع الحقائق الظاهرة والباطنة، فيكون بمثابة روح العالم، حيث أن هذا العالم لا معنى له دون الإنسان" (عشقي، دت) وعلى هذا الاعتبار فإن الوجود الإنساني من منظور التصور الصوفي على جهات "إما تتبع حقيقته فتكون عالمية، فتشمل كل مراتب الوجود وأسمائها، وإما أن تضيق فتؤول إلى أدنى مراتب هذا الوجود وأخسها، ولهذا الاعتبار الوجودي الأخلاقي يقيم رواد التصوف تميزاً أنثروبولوجياً ثلاثي الأبعاد الحيوان، الإنسان الحيوان، الإنسان الكامل" (عشقي، دت).

غير أنه من باب أولى أن يتبين مقافاً في شأن هذا التلازم القائم بين الرمز والتصور الصوفي الباطني، وهو أن المتصوفة عامة يتعاملون مع هذه العلاقة (الرمز / التصور الصوفي)، فإنهم خلفوا لتناقضية مفاهيمية قليل من تنبه إليها، وهي منزلة الفهم، الواقع بين شرط الرمز وفق بعده الفلسفي والرمز بين سياقه الصوفي، الأمر الذي جعل غالبية المتصوفة يحددون مفهوم الفهم تحديداً خاصاً استطاع أن يعطي للمز بعده الصوفي من جهة، وبعده الوجودي الكوني المعرفي من جهة أخرى.

إن تجليات الخطاب الصوفي في الخطاب الروحي تُعدّ تجسيداً حياً لتلك التجربة الداخلية العميقة التي يسعى إليها الإنسان في سعيه للتقرب إلى الحقيقة المطلقة والاتحاد مع الذات الإلهية. فالخطاب الصوفي ليس مجرد تراكم للكلمات والعبارات، بل هو لغة سرية تحمل بين طياتها رموزاً ودلالات تتجاوز المظاهر الظاهرية للواقع، فتنعكس فيها الحالة الروحية للمتصوف الذي يسعى إلى كشف الباطن وتحرير النفس من قيود المادة، واستنهاض قدراتها في الوصول إلى مستويات عليا من الوعي.

لقد تميز هذا الخطاب باستخدامه المكثف للرموز والاستعارات، حيث تُستخدم الصور الشعرية والبيانية لتجسيد معاني الوحدة والاتصال الروحي، فتصبح الكلمات جسوراً تربط بين عالم المادي وعالم الروحي، وتفتح آفاق التأمل والتدبر. ويبرز في هذا السياق أن اللغة الصوفية تُعبّر عن رحلة داخلية

يحاول من خلالها الشاعر أو المفكر أن يُعبّر عن تجاربه الشخصية في لقاء الروح بالمطلق؛ رحلة تتضمن عناصر من الحب الإلهي، والتضحية، والتخلي عن الذات، وكلها سمات تجعل من الخطاب الصوفي منبرًا للتجديد الروحي والثقافي.

كما يتجلى في الخطاب الصوفي ذلك البُعد التأملي الذي يحث المتلقي على التأمل في ذاته وفي الكون، إذ يُعدّ النص الصوفي بمثابة مرآة تعكس الحالة الداخلية للإنسان، وتدعوه إلى تجاوز الفوارق المادية والسعي نحو عالم من الصفاء والسكينة. ومن خلال هذا التأمل العميق، يُمكن الخطاب الصوفي الفرد من الوصول إلى حالة من الإدراك الذاتي العميق، حيث يتجسد فيه مفهوم وحدة الوجود الذي يؤكد على أن كل الظواهر والأحداث المتنوعة هي مجرد تجليات لشهادة الإله، وتعبير عن الحقيقة المطلقة التي لا تتجزأ.

إن التجليات التي يظهرها الخطاب الصوفي في سياق الخطاب الروحي ليست مقتصرة على التعبير الأدبي فحسب، بل تمتد لتشمل تأثيرات واسعة على الفكر والروحانية، حيث يُمكن القول إن هذا الخطاب قد ساهم في إرساء أسس جديدة لفهم العلاقة بين الإنسان وخالقه، ومهد الطريق لتجارب روحانية فريدة تركز على الحب والتسامح والاتصال المباشر مع جوهر الوجود. وفي ضوء ذلك، يصبح الخطاب الصوفي أداة فعّالة لتحويل الحياة اليومية إلى رحلة ذاتية مستمرة نحو الكمال والصفاء، مما يمنح الروح دعائم قوية لتحريرها من قيود الدنيا وتجاوز معاناتها.

3. خاتمة

ختامًا، فإن تجليات الخطاب الصوفي في الخطاب الروحي تُعدُّ بمثابة انعكاس حقيقي للتجربة الروحية التي تُشعر الإنسان بأنه جزء من هذا الكون البديع؛ كون يتداخل فيه الظاهر مع الباطن، والرمزي مع الواقعي، لتصبح الكلمات وسيلة لتحقيق الوحدة والانسجام بين الإنسان والكون، وفي النهاية، بين النفس والحق الإلهي. وهذا ما يبرز القيمة الجوهرية لهذا الخطاب، إذ إنه لا يُثري فقط المشهد الأدبي بل يُشكل دعامة أساسية في رحلة البحث عن الذات والمعنى في عالم تتقاطع فيه الحواس مع البصيرة، وتتحد فيه المشاعر مع الفكر، ليكشف عن عمق الروحانية التي تسكن في داخل كل إنسان ساعٍ نحو النور واليقين.

4. قائمة المراجع:

1. ابن أبي الدنيا، (دت). كتاب التوبة، تح: هدة سيد إبراهيم (المجلد 1). مصر: مكتبة القرآن.
2. ابن القيم. (دت). مدارج السالكين، تح: المعتصم بالله البغدادي (المجلد 1). بيروت- لبنان: دار الكتاب العربي.
3. ابن النديم. (1997). الفهرست، تح: إبراهيم رمضان (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار المعرفة.
4. ابن بطلال. (2003). شرح صحيح البخاري لابن بطلال، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم (الإصدار 10، المجلد 1). الرياض: مكتبة الرشد، السعودية.
5. أبو عمر القرطبي. (2000). الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا (الإصدار 2، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
6. أحمد بن عبد الله. (1305). رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، موباي (المجلد 1). مطبعة نخبة الأخبار.
7. أحمد بن حنبل. (دت). كتاب الزهد (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
8. أنور زكريا بن شرف النوري. (دت). بستان العارفين (المجلد 1). القاهرة، مصر: دار الريان للتراث.
9. جلال الدين السيوطي. (2004). الحاوي للفتاوي (الإصدار 2، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر.
10. عبد القادر بن حبيب السندي. (1990). التصوف في ميزان البحث والتحقيق والرد على ابن عربي الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (المجلد 1). المدينة، السعودية: مكتبة ابن القيم.
11. عبد الوهاب الشعراني. (دت). اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر (الإصدار 2). لبنان: دار إحياء التراث العربي.
12. علي اليافعي. (2000). نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية، تحقيق خليل عمران المنصور (المجلد 1). لبنان: دار الكتب العلمية.
13. محمد الذهبي. (2000). التفسير والمفسرون (المجلد 1). القاهرة، مصر: مكتبة الوهية.
14. محمد بن علي التهانوني. (1996). موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.
15. محي الدين بن عربي. (1985). الفتوحات المكية، تح: عثمان يحيى. القاهرة. مصر: الهيئة المصرية للكتاب.
16. مراد قاسمي. (2015). الرسالة الجامعة ذات العلوم النافعة، أطروحة دكتوراه (الإصدار 2). اسبانيا: جامعة ألكنت، اسبانيا.
17. مسلم. (دت). المسند الصحيح، تح: عبد السلام أبو النيل (المجلد 1). القاهرة: دار الفكر الإسلامي الحديثة.
18. منير عشقي. (دت). النزعة الإنسانية بين الخطاب والفلسفة. تم الاسترداد من www.momimoun.com.